حديث في سنة ١٩٠٥

المانيا وانكلترا — المانيا وانمسا

نشر المستر جراندي احد مشاهير ادباء الانكليز مقالة في مجلة القرن التاسع عشر لخّص فيها حديثاً سياسيًّا جرى بينهُ و بين نبيل نمسوي كان سكرتيراً لسفارة دولته في احدى عواصم اوربا سنة ١٩٠٥ وقدّم لها مقدمة قال فيها: كنت انوي نشر هذا الحديث في حينهِ ولكنني رأيت قبل ذلك ان استأذن صاحبهُ في نشرهِ فقال لي باسمًا لا اسمح لك بنشرهِ ما دمت حيًّا. ذلك لانهُ انكليزي الميل ولانهُ اطلق لنفسهِ العنان في حديثهِ وبالغ في الصراحة. وفي سنة ١٩١٢ علمت انهُ مات فاستجت عليقاً فعمدت الى مذكرة كنت قد دونت فيها الحديث ووضعتها حيث لم اسسها منذ سنة ١٩٠٥. وكان موضوع الحديث سلوك المانيا مع انكلترا وعلاقتها بالنمسا فوجدت في المذكرة ما يأتي. قال محدّثي:

«تسألني هل اعرف برلين. نعم اني اعرفها لاني كنت من موظفي سفارتنا فيها في اوائل عهدي بالخدمة السياسية. وصادقت كثيرين من اهلها وكنت ازورهم آنا بعد آن. ولا انكر ان النمسويين من اهل الطبقة العليا قلما يصادقون البروسيين من اهل المانيا حتى انني انا نفسي لا ارى رأي الهيأة الحاكمة من اهل برلين ولا اميل ميلها وان كنت اعرفها تمام المعرفة. فان النبيل البروسي يختلف كل الاختلاف عن النبيل النمسوي وفيهِ اشياء كثيرة تفهمها واشياء اخرى لا تفهمها وكثير من هذا وذاك تمقتهُ. وانتم الانكليز تظنون ان المانيا امبراطورية مطلقة الحكم للامبراطور اليد العليا فيها. ولا ينكر ان في المانيا من الحكم المطلق ما ليس في روسيا لان نظام البيروقراطية[1] ليس مستحكماً فيها استحكامهُ في روسيا[2]. ولكن نبلاء بروسيا والبيروقراطية الالمانية قوة كافية لابطال كل عمل يريد الامبراطور عملهُ ولا يوافقون عليهِ. ومع ذلك فان تبعية النبلاء للدولة هي من تبعية حقيقية لا ريب فيها. فالنتيجة توازن القوتين

وتسألني عن عداوة المانيا لانكلترا. [illegible] اني حضرت كثيرين من الانكليز وخصوصاً موظفي السفارات ولكنني لم ار واحداً منهم فهم هذه المسئلة حق فهمها. فانكم انتم الانكليز سكان جزيرة ومبالغون في العزلة بالطبع رغم انتشاركم في جميع جوانب

(١) اي الحكومة التي دوائرها مستقلة بعضها عن بعض

(٢) هذا ما ورد في المذكرة ولكنني لا ارى وجه الصحة بهذا من المعاني

الارض . وعندكم انكم اذا كنتم غرضاً لشيء فانتم كل الغرض فذلك تزعمون ان عداوة المانيا لكم هي الغرض الاسمى لسياسة الالمانية الحديثة . اما نحن النمسويين فنعلم ان الامر ليس كذلك ولكن يظهر لي ان لا امل في اقناعكم بغير ما تعتقدون من هذا القبيل . وربما كان سبب عجزي عن ذلك صعوبة بسط هذه المسئلة المعقدة ولكن لا بأس ببسطها على قدر المستطاع

في سياسة المانيا الداخلية ثلاثة عناصر : عنصر النبلاء اصحاب الاملاك . وعنصر التجار واصحاب المعامل ورؤوس الاموال ومعظمهم يهود . وعنصر العمال وخصوصاً اهل المقاطعات الوسطى والغربية . وربّ سائل يسأل وما شأن ملوك البلاد الالمانية الاخرى غير بروسيا ونبلاء المانيا الجنوبية . اما عن الاول فاقول ان حرب سنة ١٨٦٦ أرت ملوك المانيا وامراءها منزلتهم . واما عن الثاني فاقول ان مطامح اعيان الجنوب في المانيا اجتماعية اكثر منها سياسية . وقد كان هواهم معنا منذ خمسين سنة او اقل اما الآن فالروح لم النمسا امبراطورية مضعضعة الحال مشرفة على الخراب فيميلون الى القوي عن الضعيف ويمكن حسبانهم بين مؤيدي اريكة هوهنزلرن وسياستها كالنبلاء ما دامت هذه السياسة تؤيد سيادة الطبقات العليا

اما من حيث علاقة النبلاء الالمان بكم فاقول انهم لا يرومون حكمكم كما تتصورون بل يرومون حكم المانيا ولا شأن لكم لديهم الا حيث تتهددون ذلك الحكم . تقول لي وما هي علاقة الحكم في المانيا بعداوة انكلترا . فاجيب انهُ يعسر عليك ان توضح مسئلة لرجل يجهلها ولا سيما اذا كان يعتقد انهُ يعلمها . خذ المانيا قبل سنة ١٨٦٦ او سنة ١٨٧٠ تجد ان حركتها التجارية لم تكن قد بدأت وان تجارتها الاجنبية كانت حقيرة وهي فقيرة . لكن قابلية التقدم والارتقاء كانت هناك لان نظام التعليم متين مبنيٌّ على العقل ولا غنى لتقدم البلاد الفعلي عن اتحادها السياسي ليكون التاجر من اهلها اميناً على حقوقه التجارية في البلاد الاجنبية . وقد تعجب الانكليز الذين قرأوا تاريخ المانيا قبل سنة ١٨٦٦ كيف ان ممالك المانيا وامارتها الجنوبية التي كانت حينئذٍ تمقت بروسيا والبروسيين اعطتها قيادها بعد سنة ١٨٧٠ وعشت في اثرها صاغرة . وبيان ذلك ان خوف بروسيا كان يملأ قلبها ثم تبدّل ذلك الخوف مصلحة . سلْ المانيًّا من الجنوب كيف يرضى ان ينقاد الى بروسيا . فان كان من ورتمبرج مثلاً اجابك بما ملخصهُ : « انا من ورتمبرج . وكنت قبل سنة ١٨٧٠ اذا تاجرت مع بلد اجنبي وقام بيني

وبين احد من اصلح خلاف التجأت الى حكومة بلادي الصغيرة اما الآن فاري ورائي امبراطورية المانيا يرمتها وشتان بين الاثنين ·

اشرت في كلامي الى نظام التعليم في المانيا · واقول في شرحه ان الالماني يبني جميع اعماله على مقتضى العقل والحاجة ويبالغ في ذلك كل المبالغة فيعطي العامل تعليماً نظرياً والعامل تعليماً فنياً عملياً · اما انتم الانكليز فقد اخبرني اخي وكان من موظفي سفارتنا في لندن ان على رأس نظامكم التعليمي قوماً من الذين يذهبون مذاهب لا علاقة لها بحقائق هذه الحياة · فمنذ كنتم في طبقة العمال مادة بديعة للعمل ولكنكم تربون العامل تربية نظرية اكثر منها عملية وتختلفون بان تعطوا الذين يشتغلون بادمغتهم تعليماً فنياً صرفاً · والنتيجة ان تعليمكم النظري واطئ كثيراً في صفته لان ٩٩ في المئة من الذين يعلّمونه لا طاقة لهم على التقدم فيه · فانهم يعلّمون اموراً نظرية حيث يجب ان يعلّموا اموراً فنية عملية · اما المانيا فان غاية النظام التعليمي فيها اعداد كل انسان لما خُلق لهُ وفطر عليه لتجني الامة اعظم نفع مستطاع منهُ · لكن علماءكم يحاولون ان يغرسوا في اذهان الكثيرين افكاراً وآراء لا يطيقها الا اهل العقول الكبيرة · ولست اعلم نتيجة ذلك في بلادكم ولكني لا اظنها نتيجة صالحة

وقد كانت نتيجة التربية الفنية العملية في المانيا جعل العامل الالماني كفوءاً فعّالاً الى حدّ يفوق المعتاد · وزاد كفاءتهُ ان اصحاب المعامل الالمانية استخدموا لاصلاح طرق العمل القديمة واختراع طرق جديدة رجالاً ربّوا تربية علمية تامّة فكانت النتيجة كما كان ينتظر · ولكن غاب عن الهيأة الحاكمة في المانيا قبل تدريب العامل على الاعمال ليخرج تامّ الكفاءة ان هذه الكفاءة هي في الغالب ام الطموح الى العلاء لا بتهُ · فان العامل الالمانيّ اصبح ولامّ لهُ الاّ اصلاح حالته الاقتصادية والمدنية والسياسية بين قومه فاستعان بالاشتراكية متخذاً اياها واسطة لبلوغ تلك الغاية · وقد يخيّل اليّ واليك ان الاشتراكية عبث وطو باطل ولكن العامّة من الامم تقبل كلّ مذهب سياسي سواء كان اشتراكيًّا او غير اشتراكي بلا بحث ولا جدل بشرط ان يرى فيهِ سبيلاً الى اصلاح حالها · وانحركة الاشتراكية في المانيا آخذة في الانتشار بسرعة وقد افضى انتشارها كما علمت الى خوف شديد في دوائر الحكومة · وليس هذا الخوف خوف حكومة ابوية ترعد خير اولادها ومنعهم من السير في سبل تؤدي بهم الى البوار بل خوف طبقة حاكمة ترى سيادتها مهددة · وهذه الطبقة سادت سيادة حقيقية لا شبيه لهُ في اوربا ما خلا روسيا

فهذا الامر في سياسة المانيا هو الذي جعل كثيرين من الانكليز ينظرون اليها بعين الشبهة والقلق اذا صحت اقوال صحفكم . وقد مضت سنين كثيرة ولا شغل للهيأة الحاكمة في المانيا الا التغلب على هذه الحركة الجمهورية لاضعافها سياسياً ان لم نقل لمحقها . فرأى الامبراطور ان لا واسطة لذلك الا ايجاد مصلحة مشتركة بين طبقات المانيا الثلاث لانهُ لا جامعة حبّ بينها . ولا ينتظر من الطبقة التجارية ومعظمها من اليهود ومصالحهم سائدة فيها ان يعطفوا على هيأة حاكمة تعاملهم بالامتهان من الوجهة الاجتماعية . ثم ان اهل الطبقة الدنيا يكرهون المتمولين من الطبقة الوسطى نظراً وعملاً والهيأة الحاكمة بعيدة عنهم فلا يرونها ولا يعرفونها الا بواسطة اعوانها وآلاتها البوليس الملكي والجاويش العسكري . ولما كانوا لا يحبونهما فهم بالتالي لا يحبونها ايضاً

اما المسئلة التي سعت الهيأة الحاكمة في حلّها فهي كيف تسود الامة بواسطة الامة . ورأت ان انشاء مصلحة مشتركة تربط جميع الطبقات بعضها ببعض واسطة لازمة لبلوغ تلك الغاية . فمنذ قرن كان حلّ مسئلة مثل هذه سهلاً على اية هيأة حاكمة وذلك انها كانت تستطيع بجيش صغير اخماد كل حركة بين رعيتها ولكنها لا تستطيع مثل ذلك الآن فتوصلت الى ادراك مأربها بسياسة مبنية على امرين الخوف والجشع . فقامت فائتة صحف الحكومة غير مرة في السنين الاخيرة تنادي بأن البلاد على شفا جرف هار . وانت تعلم وانا اعلم والحكومة نفسها تعلم ان هذا النداء كاذب اذ ليس في اوربا مملكة هددت المانيا منذ سنين كثيرة وليس فيها مملكة تهددها الآن . فانا نحن النمسويين مرتبطون بل مقيدون معها بحالفة وايطاليا معنا ويلوح لنا ان انكلترا مكتفية بمشاغلها وانهُ لا يجول في صدرها فكرة عدائية . اما فرنسا فآخذة في الانحطاط عسكرياً وكثيرون من اهلها يريدون تنامي الاخذ بالثار . واما روسيا فلم تبدِ منذ زمان طويل ميلاً الى التوسع في الغرب وهي ليست الآن في مركز يمكنها من التحرش بدولة من الدرجة الاولى ولا يخشى ان تكون في ذلك المركز ولو بعد سنين كثيرة

والحكومة الالمانية تعلم كما نعلم نحن ان سلاح الدول الاخرى الذي تخوّف به شعبها ليس سلاح عداء بل سلاح دفاع من المانيا نفسها . ولو اقترحت المانيا تخفيض السلاح ما رأت دولة في اوربا الا وتقبل اقتراحها جزلة مسرورة . ولكن جمهور الامة الالمانية ينكر هذه الحقائق لان الهيأة الحاكمة تكذبها . وتكذبها اياها في مصلحتها . فلذلك ترى روح الحرب في المانيا باقياً حيث هو وترى الامة تلبي مطالب الجيش بلا تردد ولا امهال

على ان عامل الخوف هذا لا يؤثر في الطبقة التجارية الوسطى تأثيره في الطبقة الدنيا لان اهل الطبقة التجارية اسمى ادراكاً واكثر ضرباً في مناكب الارض واعرف بالبلاد الاجنبية وابعد عن تصديق كل ما يقال لهم . وهناك اسباب كثيرة تحملهم على القناعة بحالتهم الحاضرة فانهم يسيرون حثيثاً في سبيل التجارة العامة حتى سبقوا التجار الانكليز في كثير من الاسواق وقد جمعوا ثروة طائلة . وقناعتهم هذه جاءت عقبة في سبيل الحكومة فان فئة النبلاء من كبار المالكين يخافون من قيام ارستوقراطية تجارية خوفهم من قيام ديموقراطية اشتراكية ولاسيما ان الاولى اعسر اخماداً من الثانية . لذلك بُذلت المساعي في السنين الاخيرة لاستجلاب فئة التجار الى جانب الحكومة فصادق الامبراطور بعض زعمائهم ورقّاهم في الهيأة الاجتماعية . وجعلت الصحف الرسمية تنشر المقالات مبينة لهم وجوب وجود جيش قوي واسطول قوي لتأييد التجارة ومساعدتها على ارتقائها . فوافقوا مبدئياً على هذه الفكرة ولكنهم خالفوا الحكومة في مدى تطبيقها بدعوى ان كل توسع فيها يفضي الى زيادة في الضرائب . ولم يفتهم قول القائل انهُ كما تقوت المانيا واشتد ساعدها زحمت انكلترا امامها وحلّت محلها لانهم كانوا يسابقون التجار الانكليز في اسواق انكلترا نفسها وفي مستعمراتها ويسبقونهم من غير وسيلة حربية

فلم يتشل الحكومة الالمانية من هذه الورطة ولم يحلّ لها هذه العقدة الاّ انتم الانكليز . فقد قام نفر في انكلترا اخيراً يتحدثون بحماية التجارة (ضرب رسوم على الواردات الاجنبية) وبالتعريفة التفضيلية (تمييز واردات المستعمرات على غيرها) . ولست افهم تفصيلها تماماً ولا اظن الالمان يفهمونهُ . وانما اعلم انهم يتهمونهُ كما افهمهُ انا وخلاصتهُ ان تفرض تعريفة جمركية تنيل التاجر الانكليزي مزية عظيمة على غيره في جميع البقاع الخاضعة لانكلترا واسوافها وكثير ما هي . وفي ذلك خسارة مالية لالمانيا لا تقدر . وقد تقول لي ان الحماية وامثالها من الكلمات نداؤه فارغ لن يعمل به ولن يتحقق . نعم ولكن من يضمن للتاجر الالماني عدم حدوث ذلك . فهذا ما حدا بالفئة التجارية في المانيا على الانضمام الى الحكومة وتأييدها في سياستها الحربية والبحرية . ولطالما حسدكم الالمان على ما يرون من اسباب الرفاه والرخاء في انكلترا لان الحسد خلق فيهم حتى ترى العامل منهم يحسد العامل الانكليز اعتقاداً بانهم احسن منهُ حالاً . وقد استخدمت الحكومة هذا الطبع لترويج فكرتها وبلوغ قصدها

وكلّ مطّلع على حقائق الحال لا يرتاب في عداء الامة الالمانية اجمالاً لانكلترا . ولكن

هذا العداء هو من عمل الحكومة في الاكثر . والحكومة تراقب المدارس والجامعات ولكن لا اعلم هل تعلم فيها بوجوب ذلك العداء . وانما اعلم ان بعض قومكم يعلمون هذه الحقائق تمام العلم ولكن يسكم رجالاً لا يصدقون الاَّ ما يقع تحت حسهم وما يطابق حدسهم . وهؤلاء ايسر انخداعاً من اجهل طبقات الامة . فانهم يظنون ان التعليم يأتي بثمار متشابهة في جميع العالم وان الالماني المتعلم كالانكليزي المتعلم في بساطة قلبه وصفاء طويته وفاتهم ان الطبقة التي تحكم المانيا ليست الطبقة المتعلمة بمعنى هذه الكلمة الواسع بل طبقة ربيت ضمن حدود ضيقة معينة لا مجال للعواطف فيها

وليست معاداة انكلترا غاية الهيأة الحاكمة في المانيا بل واسطة لبلوغ غاية . فان هذه الهيأة تستعد لحرب عظيمة قد تكون انكلترا غرضها الاول وقد لا تكونهُ . ولكنها تمثل انكلترا للشعب الالماني معتدية على مصالح المانيا فيعذر الشعب حكومتهُ على ما تبدي من الاهبة في البر والبحر . وغاية الهيأة الحاكمة حرب عظيمة تدخلها المانيا بعد ان تستعد تمام الاستعداد لمحاربة فرنسا وروسيا مجتمعتين او لمحاربة انكلترا وحدها لانكم انتم الانكليز لم تدخلوا المحالفات الاوربية . وهذه الحرب تشهرها المانيا في الظاهر على دولة اجنبية واحدة او اكثر من واحدة ولكنها تكون في الواقع حرباً تشهرها الهيأة الحاكمة في المانيا على القوات والعوامل الداخلية التي تريد قلبها وتل عرشها

وبيان ذلك ان الهيأة الحاكمة تعتقد — واعتقادها صواب في ظني — بان المانيا تخرج من حرب مثل هذه منصورة وانتصارها يجعل العنصر الحربي صاحب الكلمة العليا في اوربا ويجعل الحكم العسكري امراً لا بد منهُ على الدوام في المانيا . ولا بد لالمانيا من مهاجمة دولة من الدول بعد سنوات قليلة . وعندي ان تلك الدولة لا تكون انكلترا لانها اذا حاربت انكلترا وصل الفريقان المتحاربان الى الحالة التي يبلغها الشاه في الشطرنج حيث لا يجد منقذاً ولا متأخراً فيقال انهُ مات . وبعبارة اخرى لا تستطيع دولة منهما ان تنال منالاً من الاخرى وتنتصر عليها انتصاراً فاصلاً في حين ان الهيأة الحاكمة في المانيا ترمي الى عمل فاصل . لذلك ارى ان المانيا تهاجم فرنسا وروسيا لانها تستطيع ان تنتصر عليهما انتصاراً يكون بهِ فصل الخطاب فان فرنسا مخطئة عسكرياً وروسيا مختلة . واذا هاجمتها المانيا لزمت انكلترا الحياد

تسألني وما تأثير انتصار المانيا على فرنسا وروسيا في انكلترا فاجيب بان ذلك الانتصار يضمن سيادة الهيأة الحاكمة في المانيا سنين كثيرة وهذا ما ترمي اليهِ حقيقةً . ولكنني اعتقد

بان المانيا تعود فتهاجم انكلترا عاجلاً او آجلاً لان انتصارها يزيد قوة المطامع التي عانت الحكومة ما عانت ابشها وتمزيزها في صدور الطبقة التجارية . واذا قلت لي واية علاقة للنمسا وايطاليا بهذه السياسة . قلت لك اما ايطاليا فلا اعلم الشيء الكثير عن سياستها سوى انها حالفت المانيا وايانا تحمي نفسها منا ظنًّا منها ان النمسا ما تسيت اخذ مقاطعتي لمبارديا وفنيسيا منها ولا اغتفرته . وما دامت تجد هذه الحماية في المحالفة فانها تبقى فيها

واما نحن فقد دخلنا المحالفة لاسباب شتى اعظمها خوفنا من روسيا وهو خوف اثبتت الايام انهُ مبالغ فيهِ على ما يؤكد وفي غير محلهِ على ما يظن . ولكن مع هذا كلهِ لا يزال هناك خوف من وقوع المشاكل بيننا وبين روسيا في البلقان وخصوصاً بعد استيلائنا على البوسنه والهرسك . ومشهور انهُ منذ عقدت المحالفة الثلاثية اشتد حرج الحالة الداخلية في النمسا . اما مشاكل المانيا الداخلية فاجتماعية وعندنا نحن مشاكل من نوعها ولكن مشكلتنا الكبرى وطنية . فان مسئلة المجر ومسئلة السلاف من قومنا تعقدتا في السنين الاخيرة . ويوصف كوني تمسوتًا تراني اضطرب عند الاشارة الى المجر فان دأبهم التظلم من النمسا والحال اننا نحتام الشيء الكثير حتى عظم شأنهم في الامبراطورية عظمة لا تلائم عددهم . وبينا تسمعهم يتظلمون من معاملة النمسا لهم تراهم هم انفسهم يعاملون السلاف والرومان من رعيتهم معاملة موسومة بافظع الظلم . وهم يدَّعون انهم يمدنوننا ويثقفوننا و ينبذون اللغة الجرمانية ولكنهم اهل جهل مطبق فانهم ينشدون استقلالاً لم يستطيعوا المحافظة عليهِ الاَّ بمساعدة روسيا ومعاونة السلاف من رعاياهم ومع ذلك لم يغتفروا لروسيا تصدتها لهم سنة ١٨٤٩ وهم يعاملون السلاف في بلادهم بالامتهان والظلم . ولو اتحدوا معاً لأحرجوا موقف العنصر الجرماني في النمسا . والجرمان عندنا يعلمون ذلك ويعتمدون علينا حتى في عمل ما لا يعود علينا بنفع كثير

بقي لي شيء واحد قولهُ وهو انهُ اذا خرجت المانيا من حرب اوربية عظيمة والنصر حليفها فلا تسمح بان تقوم في بلدان اوربا قوة للشعب تحيي الآمال السياسية في صدور الطبقات الدنيا . وهذا الامر في طاقتها لان انتصارها يجعلها الآمرة الناهية في اوربا تحرم ما تشاء وتثبت ما تشاء » انتهى

ترجمنا هذا الحديث لاننا رأينا فيهِ تعليلاً لاستعداد المانيا الكبير لهذه الحرب . ومما يزيد قيمة هذا التعليل ان صاحبهُ جاهر بهِ قبل الحرب بنحو عشر سنوات وهو دليل على المبتغى وعلى ان الحكومة الالمانية تجري في اعمالها على اساليب محكمة ولو كانت غايتها مخالفة لمقتضى العمران